وبإرادة لم تزل أخر هلاك القرى إلى الوقت الذى لم يزل يريد أن يهلكها فيه](١).

وبذلك نرى أن الإمام المحاسبى أثبت الإرادة على أنها صفة لله قديمة قائمة بذاته سبحانه وتعالى وأن تعلقات هذه الصفة بالحوادث لايدل على حدوثها بل إنه يجب علينا أن نفرق بين قولنا الله مريد ، أراد الله . فمعنى الأول هو اثبات صفة قديمة لله قائمة بذاته أما قولنا : أراد، يريد، نريد فإن ذلك يدل على تعلق الإرادة بالحادث. وهذا هو بعينه مذهب أهل السنة يقول الإمام الرازى [ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ، يريد ، علم ، يعلم، يجوز أن يدخله الحدوث وإنما تقول الله تعالى صفة قديمة هى الإرادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشئ تقول أراد ، ويريد وقبل التعلق لا تقول أراد إنما نقول له إرادة وهو بها مريد](٢).

علـــم اللـه سبحـانه وتعالـى

تحدث المحاسبى عن علم الله سبحانه وتعالى فى كتابه فهم القرآن وأفاض الحديث فى بيان أن العلم صفة قديمة أزلية ثابتة لله سبحانه وتعالى بها يكون إنكشاف جميع الأشياء قبل وجودها وحين وجودها وبعد وجودها دون أن يلحق علمه بها أمر جديد حادث فعلم الله أزلى قديم وليس بحادث ولا يدخل هذا العلم فى دائرة التصور الذهنى بل لابد من الإيمان به إيمانا مطلقا لأن التصور الذهنى لايدخله إلا ماكان فى زمان أو مكان. أما بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى فهو منزه عن الزمان والمكان ولذلك يجب على الإنسان كما يرى المحاسبى أن يؤمن بأن الله عالم بكل شىء صغيرها وكبيرها دون أن يسأل الإنسان كيف ومتى؟ ولكن يجب عليه أن يسلم بذلك تسليما مطلقاً .

ولقد استدل المحاسبى على ثبوت العلم لله بالقرآن الكريم والعقل والفطرة وكأنه بذلك يريد أن يرد على المخالفين له فى المذهب والذين قد أثبتوا الحوادث بذاته سبحانه وتعالى فيرد عليهم موضحا تهافت أدلتهم وسفه عقولهم وهذا بين من شرحه لبعض آيات القرآن الكريم شرحا يتفق والعقيدة الإسلامية.

والمحاسبى حين يثبت العلم لله فإنه يستخدم منهجا فريدا لم أجده عند أحد من السابقين عليه فهو يتدرج فى إثبات العلم على مراحل ثلاث : إثبات علم ماكان : إثبات علم ماسيكون إثبات علم ماهو كائن وهو فى إستدلالاته هذه يسير وفق منهج القرآن الكريم وتفهم العقل لهذه الآيات القرآنية فهما يدل على تعمقه وبعد نظره.

---

(١) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى جـ ٢٦ ص ٩٧ .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٢٦ ص ٩٧ .

ويقول المحاسبى فى إثبات علم ماكان لله سبحانه وتعالى [وقد إمتدح الله جل وعز بعلم ماقد كان وماسيكون - ومالايكون أو كان كيف كان يكون فمدح نفسه بعلمه جميع الغيوب فقال جل من قائل : وربك أعلم بمن فى السماوات والأرض : وقال وهو الله فى السماء والأرض يعلم سركم وجهركم ، وقال : عالم الغيب والشهادة وقال علم الله أنكم ستذكرونهن : وقال علم أن سيكون منكم مرضى][1] فالمحاسبى بهذا النص يثبت علم ماكان وماسيكون ومالايكون لله سبحانه وتعالى ثم يستدل على ثبوت علمه سبحانه وتعالى بما كان بالآيات القرآنية التى تتناسب وهذه الفكرة ثم يثبت علم ماسيكون لله بالآيات التى تتناسب أيضا مع هذه الفكرة حيث يقول [وأخبر بما لا يكون أو كان كيف كان يكون فقال عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقال لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم فأخبر أنه قد علم أنهم لو نصروهم لولو الأدبار][2].

وبين المحاسبى أن هناك آيات فى القرآن تفيد ظاهرها ففى العلم عن الله وذلك مثل قوله حتى يعلم ، ولما يعلم ، وليعلمن. إلا أنه يدفع هذا الوهم الخاطىء مثبتا العلم لله شارحا لمثل هذه الآيات حيث يقول [وإنما قوله حتى يعلم ولما يعلم وليعلمن إنما يريد حتى يراه فيكون معلوما موجوداً][3].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو مامعنى علم الله بالشىء قبل أن يكون ومامعنى علمه بالشىء بعد أن يكون وهل هذا يعنى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم الشىء أنه موجود معدوم فى وقت واحد ؟ وهذا محال :

يدفع الإمام المحاسبى هذا التساؤل مستدلا على ماذهب إليه بالعقل حيث يقول [لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشىء معدوماً قبل أن يكون ويعلمه موجوداً كائناً فيعلم فى وقت واحد أنه معدوم موجود أنه قد كان وأنه لم يكن بعد وهذا المحال : وإنما لم يجز أن يقال يعلم الله أن الشئ قد كان لأن الشىء لم يكن بعد فإن الله جل وعز لا يجوز أن يكون جاهلا به أنه سيكون ...][4].

ويستدل الإمام المحاسبى على ذلك بعلم البشر الذي قد سبقه جهل وحادث بعد أن لم يكن حيث يقول [وذلك موجود فينا ونحن جهال وعلمنا محدث قد علمنا أن كل إنسان ميت فكلما مات إنسان قلنا : قد علمنا أنه قد مات من غير أن نكون قبل

(١) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٣٩ .
(٢) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٣٩ .
(٣) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٤) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٤٠ .

موته جاهلين أنه سيموت إلا أنا قد يحدث لنا العلم من الرؤية وحركة القلب إذا نظرنا إليه ميتا بأنه ميت ... فكيف بالقديم الأزلى الذى لا يكون موت ولا نهار ولا شىء من الأشياء ألا وهو يخلقه ونحن لا نخلق شيئا](١).

فالمحاسبى أثبت علم البشر بما كان وإذا كان ذلك موجود للبشر فكيف بالقديم الأزلى القديم وقد فرق المحاسبى بين علم البشر وعلم الله سبحانه وتعالى بأنه علم البشر يسبقه جهل وعلم البشر حادث وجد بعد أن لم يكن موجوداً وعلم البشر يأتى بعد الروية وحركة القلب وعلم البشر لا يكون إلا فى دائرة الزمان والمكان والله عز وجل منزه عن هذه جميعها.

وبين المحاسبى أن علم الله غير مستأنف حتى ولو كان هناك مايدل على استئناف العلم من أى القرآن الكريم ويستدل على عدم استئناف علم الله بوجود الفعل المحكم منه سبحانه وتعالى ووجود الفعل المحكم منه سبحانه يدل على أنه صانعه والدليل على أنه صانعه لابد وأن يدل على أن الصانع لابد وأن يكون عالما بصنعته ، قبل صنعها يقول المحاسبى [وكذلك إذا تلوت قول الله تعالى : فليعلمن الله الذين صدقوا وقوله ولما يعلم اله الذين جاهدوا منكم فظاهر التلاوة على استئناف العلم من الله بجهاد المجاهدين وصدق الصادقين وكذب الكاذبين وجل الله أن يستأنف علما بشىء وكيف وكل شىء يكون فهو بكونه فلم يأت الا وقد تقدم العلم منه به وكيف يأتى وكيف يكون ولو لم يكن يعلم كيف يكون ماأحسن أن يكون أبداً لأنه من ليس له علم بما يريد أن بصنعه كيف يكن يحسن أن يصنعه ومن لم يحسن كيف يصنعه لم يقدر أن يصنعه](٢)

ويستدل المحاسبى على شرحه هذا لأيات القرآن الكريم بالفطرة التى يجدها كل إنسان فى نفسه تلك الفطرة التى تحكم بأن من لم يتعلم الكتابة لا يستطيع أن يكتب كتابا وكذلك من لم يتعلم الصنايع لا يستطيع أن يجيد صنعة ما وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا العالم وهو المدبر لجميع شؤنه فلابد وأن يكون عالما بهذا الخلق قبل خلقه له حيث يقول [وهذا نجده ضرورة فى فطرنا فلو لم نر كتابا قط ولم نحسن أن نكتب لم يجز لنا أن نكتب كتابا مؤلفا بمعانى مفهومه بالتخمين أبداً وكذلك جميع الصناعات من لم يرها فيعلمها أو توصف له فيعلمها لم يحسن أن يأتى بها أبدا فالله جل ذكره أولى بعلم مايكونه قبل أن يكونه](٣).

(١) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٤٠ .

(٢) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ . (٣) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٣٨ .

ولم يقف المحاسبي في إستدلاله على ثبوت العلم لله عند النص والفطرة فقط بل أنه تعدى ذلك إلى دائرة العقل فيستدل بالعقل على ثبوت العلم لله ومؤدى دليله العقلي هو أن الفعل المحكم المتقن في الصنع لا يستطيع أحدا أن يأتي به إلا إذا كان عالما به قبل أن يوجده وبديهة العقل تشهد بذلك وإذا كان الأمر كذلك وقد ثبت لدينا بما لا يقبل الشك أن فاعل العالم هو الله سبحانه فلابد أن يثبت أن هذا الفاعل الحكيم لابد وأن يكون عالما ويقول المحاسبي في ذلك {وقد يستدل على ذلك من عقولنا أن من فعل شيئا بحكمة فلم يفعله حتى كان عالما قبل أن يفعله فأتى به كما أراد أن يكون وقد علم كيف يجيء}(١).

وبذلك نجد أن الإمام المحاسبي قد أثبت العلم لله على أنه صفة أزلية قائمة بذاته تعالى وأن علمه سبحانه وتعالى شامل لجميع الأشياء في جميع حالاتها أي قبل كونها وحين تكونها وبعد تكوينها وهو بذلك يخالف المعتزلة الذين نفوا الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما أنه يخالف الروافض الذين قالوا بأن الحوادث تلحق بذات الله سبحانه وتعالى وينبغي أن نشير هنا إلى نتيجتين أساسيتين :

النتيجة الأولى : أن المحاسبي في بحثه لصفة العلم لم يتحدث عن العلم كحديث الفلاسفة عنه وتقسيماتهم له بعلم كلي وعلم جزئي وعلم ولكنه تحدث عن علم الله سبحانه وبين أن علمه شامل لجميع الأشياء وذلك لأحد أمرين :

أ - إما لأن مقالات الفلاسفة في العلم لم تكن قد نقلت بعد إلى اللغة العربية ولذا فإن لم يطلع عليها ولم يتعرض لها في بحثه لصفة العلم.

ب - وإما لأنه يؤمن بأن علم الله لا يوصف بكونه كلي ولا جزئي وأن الكلي والجزئي إنما يوصف بها علم البشر أما علمه سبحانه فلا يوصف بكلي ولا جزئي.

النتيجة الثانية : يعتبر الإمام المحاسبي هو أول من وضع قاعدة «قياس الغائب على الشاهد» في استدلاله وذلك واضح في ضرب الأمثلة التي ساقها لبيان مايريد أن يصل إليه ومما لاشك فيه أن هذه الطريقة قد استخدمها علماء الأصول وعلماء الكلام من بعده وتوسعوا فيها توسعا لا نظير له إلا أنه يكفي المحاسبي أنه كان أول من استحدث هذه الطريقة في استدلالاته وأنه لم يوجد أحد من السابقين عليه قد استخدم هذا المنهج الفريد في الاستدلال وبذلك فلا يكون الاشاعرة اتباع الإمام الأشعري ولا المعتزلة ولا الفلاسفة هم أول من استحدث هذه الطريقة كما ذهب إلى ذلك فضيلة الأستاذ الدكتور على سامي النشار(٢).

(١) فهم القرآن للمحاسبي ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٢) انظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور النشار ص ١٢٩ دار المعارف سنة ١٩٦٦ .

السمـــع والبصـــر

وبعد أن أثبت المحاسبى علم الله بما كان ومايكون وماهو كائن يثبت لله سبحانه صفتى السمع والبصر كما تحدث القرآن الكريم ويرد على المخالفين الذين أثبتوا لله سمعا حادثا وبصرا حادثا وذلك من خلال تفسيره لبعض آيات القرآن.

فهو يثبت السمع والبصر لله سبحانه وتعالى حيث يقول {وكذلك قوله عز وجل إنا معكم مستمعون : ليس معناه إحداث ولا تكلف لسمع مايكون من المتكلم فى وقت كلامه وإنما معنى إنما معكم مستمعون ، وسيرى الله عملكم أى المسموع والمبصر لن يخفى على سمعى ولا على بصرى أن أدرك سمعاً وبصراً لا بالحوادث فى الله جل وعز وتعالى عن ذلك. وكذلك قوله إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله لا يستحدث بصراً ولا لحظا محدثا فى ذاته تعالى عن ذلك}(١).

وهذا التفسير لآيات القرآن والذى قال به المحاسبى هو بعينه الذي قال به الامام الرازى من بعده فالإمام الرازى يقول عند تفسيره للآية الأولى {إنا معكم مستمعون: فمن مجاز الكلام يريد أنا لكما ولعونكما كالناصر الظهر لكما عليه إذا أحضر واسمع مايجرى بينكما .. وإنما جعلنا الاستماع مجازا لأن الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال : }(٢).

ويقول عند تفسيره للآية الثانية : {إنها تدل على كونه تعالى رائيا للمرئيات لأن الرؤية المعداة إلى مفعول واحد هى الابصار والمعداة إلى مفعولين هى العلم ...

وههنا الرؤية معداة إلى مفعول واحد فتكون بمعنى الابصار وذلك يدل على كونه مبصراً للأشياء...}(٣).

ثم يعرض المحاسبى قول المخالفين له والذين أثبتوا لله سمعا وبصرا حادثا وهم الروافض والمشبهة ويرد عليهم يقول المحاسبى فى عرض شبه المخالفين {وقد ذهب قوم إلى أن لله جل وعز إسماعا حادثا فى ذاته فذهب إلى مايعقل من الخلق أنه يحدث فيهم علة السمع مايكون من قول عند سمعه للقول لأن المخلوق إذا سمع الشيء حدث له عنه فهم هما أدركته أذنه من الصوت وكذلك ذهب إلى أن رؤية تحدث له}(٤).

---

(١) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٢٤ ، ٣٤٥ .

(٢) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى جـ ٢٤ ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق جـ ١٦ ص ١٤٩ .

(٤) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٤٥ .

والمحاسبى بهذا المعنى يريد أن يعرض رأى الروافض والمشبهة فهم الذين قد ذهبوا إلى هذا الرأى يقول الأشعرى عن الروافض [يزعمون أن ربهم على صورة الإنسان ... وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان له يد ورجل وأنف وأذن وعين وأنه يسمع بغير مايبصر به وكذلك سائر حواسه متغايرة عندهم][1].

ويقول البغدادي فى بيان مذهب المشبهة [فأما المشبهة لصفاته بصفات المخلوقين فأصناف .. ومنهم الزرارية (قالوا) بحدوث جميع صفات الله عز وجل وأنها من جنس صفاتنا وزعموا أنه الله تعالى لم يكن فى الأزل حيا ولا عالما ولا قادراً .. وانما استحق هذه الأوصاف حيث أحدث لنفسه حياة وقدرة وعلما وارادة وسمعا وبصرا كما أن الواحد منا يصير حيا سميعا بصيرا مريدا عند حدوث الحياة والقدرة ...][2] ويرفض المحاسبى قول الروافض والمشبهة وينزه الله عز وجل أن تلحقه الحوادث أو أن يكون سمعه وبصره مثل سمع البشر وبصرهم بل أن المحاسبى يذهب إلى التسليم بأن الله سميع بصير وأنه سبحانه وتعالي لا تلحقه الحوادث لأن مايلحقه الحوادث فهو حادث فكيف وقد أثبت لله القدم يقول المحاسبى [وهذا خطأ (يقصد قول الروافض والمشبهة) وإنما معنى سيرى . وأنا معكم مستمعون. أن السموع والمبصر لم يخف على عينى ولا على سمعى أن أدركه سمعا وبصرا لا بالحوادث فى الله جل وعز ومن ذهب إلى أنه يحدث له استماع مع حدوث المسموع وابصار مع حدوث المبصر فقد ادعى على الله عز وجل مالم يقل وإنما على العباد التسليم كما قال أنه عالم سميع بصير ولا يريد مالم يكن وإنما معنى حتى يعلم حتى يكون المعلوم وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع ولا يخفى على الله عز وجل أن يعلمه موجودا ويراه ويسمعه موجودا بغير حدوث علم فى الله جل وعز ولا سمع ولا بصر ولا يعنى حدوثا فى ذات الله جل الله عن الحوادث فى نفسه وتعالى عن البداوات فى علمه وارادته علوا كبيرا][3].والمحاسبى بنصه هذا يثبت التنزيه لله عن جميع صفات الحوادث وفى نفس الوقت يثبت الكمال المطلق لله الذى أثبته الحق لنفسه واذا كان هناك تعارض بين مافى العقل وبين صريح النص وجب على الانسان أن يعجز العقل ويسلم بما أتى به النص وهو الذى يعنيه بقضية التسليم أى أن التسليم لا يكون إلا عند تعارض العقل والنص.

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٠٩ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٣ .

(٣) فهم القرآن للمحاسبى ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

صفة العلو

إن صفة العلو - أى أن الله فى أعلى وأن الله فى السماء - مشكلة شغلت أذهان المسلمين فالمشبهة مثلا أثبتوا أن الله فى جهة وأنه مستقر على العرش وأنه سبحانه تجوز عليه النقلة من مكان إلى مكان. بينما كان المعتزلة الذين قاموا بتأويل مثل هذه الآيات والأحاديث التى تفيد ظاهرها ذلك تأويلا يتفق وعقيدتهم فى التنزية وقد اطلع المحاسبى على هذه المقالات التى كانت شائعة في عصره ولم يعجبه مقالات المشبهة ولا الحشوية ولا المعتزلة لذلك كانت الخصومة قائمة بينه وبين أنصار هذه المقالات ولذلك نجده يذكر رأيهم أولا على أنه شبهة ثم يرد عليهم مستخدما فى رده هذا العقل واللغة والفطرة السوية لكي يثبت الحق ويدحض الباطل.

وإنصافا للحق فلابد من ذكر قاعدة هامة تفسر لنا أولا موقف الإمام المحاسبى من الآيات التى يوهم ظاهرها التشبيه.

هذه القاعدة هى أن الآيات التى وردت فى القرآن الكريم والتى يوهم ظاهرها التشبيه لها وجوه عدة يقول المحاسبى (... والمتشابه له وجوه فمنه متشابه فى التلاوة من غير أن ينسخ بعضه بعضا ومنه متشابه لاختلاف أوقاته في الواجب وفى الكائن ما أخبر الله أنه كائن ومنه متشابه والمعانى مختلفة ومنه مقدم ومؤخر ومنه خاص وعام ومنه موصول ومفصول ومنه غريب اللغة ومنه مالايعرف معناه إلا بالسنة أو الإجماع ومنه مالايعرف معناه إلا بعد تلاوة مايأتى فى سورته..)(١).

وبعد أن يبين الإمام المحاسبى الوجوه التى يكون عليها المتشابه فى القرآن الكريم يفصل القول فى قضية العلو والاستواء فبذكر الآيات التى تثبت العلو والاستواء ثم بين أن هذه الآيات منها ماهو مقطوع فلا يجب وصله ومنها ماهو موصول فلايجب قطعه وأن السبب الذى أوقع الخصوم فيما وقعوا فيه هو أنهم تصوروا أن جميع الآيات التى يوهم ظاهرها التشبيه على وجه واحد وبعضهم تصور أن بعض هذه الآيات ناسخة للبعض الآخر وكلا التصورين خطأ يقول المحاسبى.

(وأما قوله على العرش إستوى ، وهو القاهر فوق عباده ، أأمنتم من فى السماء، إذا لا يتقوا إلى ذى العرش سبيلا فهذه وغيرها مثل قوله إليه يصعد الكلم الطيب وقوله ثم يعرج إليه فى يوم فهذا مقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء ، منزه

---

(١) منهج القرآن ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

عن الدخول فى خلقه لا يخفى عليه منهم خافية لأنه أبان فى هذه الآيات أن ذاته بنفسه فوق عباده}[1].

فالمحاسبى بين هنا أن الفوقية التى أثبتها الحق لنفسه ليست فوقية مكانية كما فهم المشبهة والحشوية ولكن الفوقية التى تفهم من الآيات فوقية المكانة يعنى أن الحق سبحانه فوق عباده بعلمه وأمره أى أن مكانة الحق أعلى من أى تصور أما عن قوله سبحانه الرحمن على العرش إستوى فإن المحاسبى قال إن الحق فوق العرش بذاته ولا يعنى ذلك دخول فى العرش.

وهذا القول من الإمام المحاسبى هو وسط بين طرفين فهو لم يسرف فى التأويل كما قال المعتزلة ففسروا الاستواء بالاستيلاء ولم يقف مع الحشوية فيفسر الاستواء بالجلوس والمماسة لما فى ذلك من التشبيه والتجسيد وإثبات الجهة لله ولكنه فسره بما يوافق الذات العلية فأثبت الاستواء ونفى التشبيه والتجسيد والجهة وهذا يعتبر بعينه هو قول الإمام مالك مع إختلاف العبارة لما قال الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وإذا كان المحاسبى قد فسر الفوقية بفوقية المكانة وفسر الاستواء بالاستواء مع اثبات التنزيه فهناك قضية ثالثة تتعلق بهذا الموضوع أيضا هى هل الله فى كل مكان بنفسه كما قالت الحشوية أم أن للمحاسبى رأى فى الآيات التى يفهم ظاهرها ذلك ؟.

يعرض الإمام المحاسبى رأى الحشوية أولا فيقول {وقد إدعى بعض أهل الغلال فزعموا أن الله جل وعز فى كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش}[2].

ثم يرفض المحاسبى رأى الحشوية ويبين موقفه من هذه القضية موقفا يتفق وعقيدته وذلك من خلال شرحه لقوله تعالى {ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض} الآية ويبين أن موقف الحشوية لاسند له وحقيقة الأمر أن بعض المتشابهات مقطوع فيجب أن تفهمه على ذلك وبعضها موصول لايمكن فهمه الا بما قبله ومابعده فأيات الاستواء والعلو مقطوعة مفصولة وآيات أنه كائن فى كل مكان بنفسه موصولة ثم يفسر الآية بالعلم ويستدل على ذلك بسياق الآية وأن ذلك موجود بالنسبة للبشر فمن باب أولى أن نكون ثابتة لله حيث يقول {وأما الايات الاخر التى نزعو بها (يقصد التى إستدل بها الحشوية) فقد أبان الله جل وعز فى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠.

(٢) فهم القرآن للمحاسبى ص ٣٤٨.

تلاوتها أنه لايريد أنه كائن فى الأشياء بنفسه إذ وصلها ولم يقطعها كما قطع الكلام الذى أراد به كونه فوق العرش فقال عز وجل ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض فبداء بالعلم وأخبر أنه مع كل مناج حيث وجد وختم الآية بالعلم وقال إن الله بكل شىء عليم فبداء بالعلم وختم بالعلم فبين أنه أراد أنه يعلمهم حيث ماكانوا لايخفون عليه ولا يخفى عليه مناجاتهم تفردوا أو اجتمعوا](١).

فالمحاسبى فسر المعية هنا بالعلم بمعنى أن الله مع كل فرد مع كل قوم يعلمه لا يخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء وماقاله المحاسبى هو ماذهب إليه الإمام الرازى أيضا فى تفسيره لهذه الآية يقول الإمام الرازى [المسألة التاسعة المراد من كونه تعالى رابعا لهم والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالما بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم وكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم وقد تعالى عن المكان والمشاهدة](٢)

ويقيم المحاسبى الدليل على ماذهب إليه من العقل فيبين أنه لو كان هناك نفر قد اجتمعوا فى مكان وأخذوا يتحدثون ويتناقشوا وكان هناك من ينظر اليهم من فوقهم ثم قال لهم أنا معكم أراكم وأسمع مناجاتكم كان صادقا فإذا كان ذلك ثابت فى الشاهد فمن باب أولى يكون للغائب ولله المثل الأعلى حيث يقول [ولو اجتمع قوم فى السفل وناظر اليهم فى العلو ويسمع كلامهم فقال إنى لم أزل معكم أراكم وأعلم مناجاتكم كان صادقا ولله المثل الأعلى عن شبه الخلق](٣).

وقد يعترض على هذا التفسير للآية بأن ذلك خروج عن ظاهر الآية وبين المحاسبى هذا الاعتراض الذى قال به الحشوية ويلزمهم الحجة البينة حيث يقول [فإن أبوا إلا ظاهر التلاوة لأن موضع الاثنين والثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك وأقل من ذلك الواحد فهو معهم لا فيهم وماكان مع الشىء فقد خلا جسم منه وبان كل واحد بنفسه عن الآخر وهذا خروج عن قولهم لأن عندهم لا يخلو من الله سبحانه شىء أن يكون فيه بنفسه فقد تركوا قولهم على ظاهر التلاوة لأن الله تعالى قال معهم ولم يقل فيهم](٤).

ويستدل المحاسبى بآيات كثيرة من القرآن الكريم لتثبت تنزيه الحق عن خلقه

---

(١) نفس المرجع ص ٢٥٢ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٣١ .
(٣) فهم القرآن ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٤) فهم القرآن ص ٢٥٣ .

وتثبت بطلان قول الحشوية {أن الله كائن فى كل شىء بنفسه} من هذه الآيات ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. وقوله {أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض وقوله تعالى وهو الذى فى السماء إله وفى الأوض إله. وتثبت أن مثل هذه الآيات لايجب فصلها عما قبلها ولا عما بعدها بل يجب فهمها باتصال ماقبلها بما بعدها لأن الحق وصلها ولم يفصلها كما فصل غيرها من آيات الاستواء والفوقية وبذلك يستطيع الإنسان فهم المراد من قول الحق سبحان

ثالثا : موقف المحاسبى من نسخ الأخبار

بعد أن ذكر المحاسبى أن فى القرآن ناسخا ومنسوخا ورأى أنه على قارىء القرآن والمتدبر له معرفة ذلك قال : إن فى القرآن معنيين لا يجوز فيهما النسخ ومن قال بأنه يجوز فيهما النسخ فقد كفر – الأول صفات الله وأسماؤه : والثانى إخباره تعالى عما كان ويكون وقد إنتهينا من الحديث عن الذات ولصفات وبقى أن نقف معه فى بيان موقفه ممن جوزا وقوع النسخ فى الأخبار.

فالمحاسبى بين أن الذين قالوا بوقوع النسخ فى الأخبار هم بعض الروافض وبعض أهل السنة لا على سبيل العمد ولكن على سبيل الاغفال والسهو حيث يقول {وأما الأخبار فقد قال بعض الروافض أن الله عز وجل ينسخ أخباره. وقال قوم من أهل السنة ينسخ الأخبار لا على التعمد منهم ولكن عن الاغفال والسهو..}(١).

ويحكى الأشعرى مذهب الروافض فيقول {واختلفت الروافض فى الناسخ والمنسوخ هل يقع ذلك فى الأخبار أم لا ؟ وهم فرقتان فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن النسخ قد يجوز أن يقع فى الاخبار فيخبر الله سبحانه أن شيئا يكون ثم لا يكون وهذا قول أكثر أوائلهم وأسلافهم...}(٢).

وبين المحاسبى أن الناسخ والمنسوخ لا يكون فى الاخبار أبدا لأن ذلك يقتضى تكذيب الحق سبحانه وتعالى وهو منزه عنه وأن الناسخ والمنسوخ لا يجوز أن يكون إلا فى الأحكام الممثلة فى الأمر والنهى والحدود والعقوبات فى أحكام الدنيا يقول المحاسبى {فالناسخ والمنسوخ لا يجوز أن يكونا إلا فى الأحكام فى الأمر والنهى والحدود والعقوبات فى أحكام الدنيا ولا يكون ذلك بدوات من الله عز وجل ولا إستفادة علم ولا رجوعا عن صدق ينسخ خبر ولا ابتداء بكذب ثم رجوعا إلى صدق جل وتعالى عن ذلك}(٣).

---

(١) فهم القرآن ص ٣٥٦ . (٢) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٢٥ .
(٣) فهم القرآن ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

وهذه القاعدة التى وضعها المحاسبى هى التى اتفق عليها الجمهور يقول الشيخ على العريض [قال الجمهور لا يجوز النسخ فى الاخبار سواء كانت ماضية أم مستقبلة لأن النسخ فيها كذب والشارع منزه عنه](١).

والقول بنسخ الأحكام لا يقتضى الجهل ولا يقتضى القول بالبداء كما تصور الروافض بل إنه سبحانه وتعالى [أمر بأمر وحكم بحكم وهو يريد أن يوجه إلى وقت ويريد أن يأمر ويتركه بعد ذلك الوقت لم يزل مريدا للفعل الأول إلى الوقت الذى أراد نسخه وأيجاد بدله إلا من المأمور به والحكم به وكلاهما لم يزل يريدهما ولم يبدله فى الثانى ببدء ولا ينسخ أمره ولكنه ينسخ المأمور بمأمورية أخر .. وكلاهما كلامه لارجوعا عن قوله الأول](٢).

ويستدل المحاسبى على وقوع النسخ فى الأحكام على وجوده فى الإنسان ووقوعه منه بلا بدء منه ولا كذب ولا جهل بناءاً على قاعدة قياس الغائب على الشاهد والتى قد وضعها المحاسبى فيكون ذلك فى الحق سبحانه وتعالى أولى حيث يقول [وكذلك كل حكم نسخه حكم آخر فإنما جعل الثانى بدلا من الأول وذلك موجود بين العباد على تقدم الارادة منهم فيما أمروا به أولا ثم نهوا عنه وأمروا بغيره من غير بدء ولا جهل وذلك كأن يأمر الرجل غلامه ليعمل فى أرضه وهو يريد أن يعمل فيها وقت الزراعة ثم يصرفه بعد ذلك إلى خدمته في منزله وكلاهما قد تقدمت به الإرادة منه من غير بدء منه ولا كذب ولا جهل فكيف بالاله الواحد القهار الذى يعلم عواقب الأمور كلها ولا تبدوا له البداوات ولا تحل به الحوادث ولا تعقبه الزيادة والنقصان](٣).

وبعد أن أبطل المحاسبى قول الرافضة وهدم مذهبهم يتجه بعد ذلك إلى مناقشة الكلبى من أهل السنة حيث إنه ذهب إلى جواز النسخ فى الأخبار ويلتمس المحاسبى له العذر فبين أن قوله هذا لا على العمد ولكنه على سبيل السهو والغفلة فبذكر الآيات التى استدل بها على جواز وقوع النسخ فى الاخبار ثم فساد قول الكلبى ويذكر الوجهة الحقيقية مستدلا على مايذهب اليه بالنص مرة وبالعقل مرة أخرى وباللغة ثالثة حيث يقول [قال الكلبى انه لما نزلت إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم نسخها بقوله : إن الذين سبقت لهم منا الحسنى](٤).

ويرى المحاسبى أن القول بنسخ هذه الآية يقضى أن يعذب الله عزيزاً والملائكة

---

(١) فتح العنان فى نسخ القرآن ص ٦١ . (٢) فهم القرآن ص ٣٦٠ .
(٣) فهم القرآن ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ . (٤) فهم القرآن ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

وعيسى ومعاذ الله أن يعذب أوليائه ويرى أن هذه الآية من الأخبار الخاصة لا العامة حيث يقول [فلما أنزل آية العذاب لم يرد بها من تقدم منه القول بولايتهم وإنما أراد من عبدوا سوى أوليائه وكان خبرا خاصا لا عاما كما قال الله جل وعز إن وبك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ولم يرد الكافرين إذ لم يتوبوا لأنه قد تقدم فيهم أخبار أنه لا يغفر لهم إن لم يتوبوا](١).

على أن الإمام الرازى يرى وجها آخر لفهم هذه الآية حيث يقول [روى أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبدالله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال إبن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيزاً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة (فرد الرسول على إبن الزبعرى بقوله ماأجهلك بلغة قومك مالما لا يعقل أى أن العرب جعلوا من للعقلاء ومالغيرهم وعزيز والأنبياء والملائكة من العقلاء فلا يشار إليهم بما](٢).

ويرى الإمام الرازى أن سؤال بن الزبعرى ساقط من وجوه[الأول أن قوله إنكم خطاب مشافهة وكان ذلك على مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط وثانيهما أنه لم يقل ومن تعبدون بل قال ماتعبدون وكلمته مالاتتناول العقلاء .. وثالثهماأن من عبد الملائكة لا يدعى أنهم إلهة .. ورابعها هب أنه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية ...](٣).

ثم يذكر المحاسبى موضعا آخر استدل به الكلبى وأصحابه على جواز وقوع النسخ فى الأخبار وهو قوله تعالى (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض فهذه الآية منسوخة بقوله «فاعفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك» ويدفع المحاسبى هذا الزعم بقوله [ولكنه أخبر أو لا بخبر كان ظاهره على العموم وهو خصوص ولم يرد أولا فى خبره أنهم إستغفروا لأهل الأرض كلهم ثم رجع فأخبر أنهم استغفروا للتائبين دون غيرهم : هم لم يستغفروا قط إلا للتائبين ولم يرد بخبره

(١) فهم القرآن ص ٣٥٧ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢٢ ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق جـ ٢٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

عنهم إلا التائبين ولكنه أخيرا أولا وكان ظاهر خبره على العموم وإنما أراد بمن فى الأرض من التائبين ثم بين فى الخبر الثانى من أراد ...}(٣).

وإلى هذا الرأى يذهب الفخر الرازى فى تفسيره حيث يقول {فإن قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن فى الأرض وفيهم الكفار وقد قال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم قلنا الجواب عنه من وجوه : الأول أن قوله بمن فى الأرض لا يفيد العموم .. الثانى هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة فى سورة حم المؤمن فقال ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك الثالث يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما فى قوله تعالى إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ... الرابع يجوز أن يقال إنهم يستغفرون لكل من فى الأرض إما فى حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم وأما فى حق المؤمنين فالتجاوز عن سيئاتهم...}(١).

رابعا : موقف المحاسبى من قضية خلق القرآن

إن الحديث فى مسألة القرآن وكلام الله من أهم المشاكل التى عرضت لفكرى الاسلام وقد أثارت ضجة كبيرة فى صفوف العلماء والعامة وارتبطت بها محنة كبيرة تعرف بمحنة الامام أحمد بن حنبل وكان شعار النظريتين المتنازعتين هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ فذهب المعتزلة إلى إعلان القول بخلق القرآن بينما ذهب الفريق الآخر إلى أنه قديم غير مخلوق وراح ضحية هذه المسألة الكثير.

وكان لابد على المحاسبى وهو يشهد هذه المعركة التى لا نظير لها أن يدلو بدلوه وأن يبين رأيه فى هذه المسألة.

والمحاسبى فى إطار حديثه عن النسخ يبين أن المعتزلة يتفقون معهم فى قولهم بأن النسخ لا يقع فى الاخبار ولكنهم قد ضلوا لما قالوا بخلق القرآن حيث يقول عنهم {ولقد جامعنا قوم من أهل الضلال فى ذلك لئلا يقع النسخ من الله عز وجل فى أخباره ومدحه وإنما يقع النسخ فى أحكامه ثم جهلوا إذا أرادوا أن يقووا قولهم بأن كلام لبن مخلوق}(٢).

ويوضح القاضى عن الجبار مذاهب العلماء فى قضية خلق القرآن فيقول {فقد إختلف الناس فيه إختلافا كبيراً فذهب الحشوية النوابت من الحنابلة أن هذا القرآن

(١) فهم القرآن ص ٣٥٨ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢٧ ص ١٢٦ .
(٣) فهم القرآن ص ٣٦٣ .

المتلو فى المحاريب والمكتوب فى المصاحف غير مخلوق ولا محدث بل قديم مع الله تعالى وذهب الكلابية إلى أن كلام الله تعالى هو معنى أزلى قائم بذاته مع أنه شىء واحد توراة وأنجيل وزبور وفرقان .. وأما مذهبنا فى ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث](١).

ويوضح الإمام الاشعرى مذهب المعتزلة فى هذه المسألة فيقول [اختلف المعتزلة فى كلام الله سبحانه هل هو جسم أم ليس بجسم وفى خلقه على ستة أقاويل. فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن كلام الله جسم وأنه مخلوق وأنه لاشىء إلا جسم والفرقة الثانية منهم يزعمون أن كلام الخلق عرض .. وأن كلام الخالق جسم .. والفرقة الثالثة من المعتزلة يزعمون أن القرآن مخلوق لله وهو عرض وأبو أن يكون جسما .. والفرقة الرابعة منهم يزعمون أن كلام الله عرض وأنه مخلوق وأحالوا أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد والفرقة الخامسة منهم يزعمون أن القرآن عرض والفرقة السادسة منهم يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق وأنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد...](٢).

وبهذا البيان الذى بينه الاشعرى نجد أن جميع المعتزلة بلا استثناء قد اتفقوا على أن القرآن مخلوق وأنه صفة فعل لله وليس صفة ذات لذلك كان بحثه فى باب العدل عندهم وقد استدل المعتزلة على خلق القرآن بالعقل والنص يقول القاضى عبدالجبار [إن القرآن يتقدم بعضه على بعض وماهذا سبيله لا يجوز أن يكون قديما إذ القديم هو مالايتقدمه غيره .. ولأنه سور مفصلة وآيات مقطعة له أول وآخر ونصف وربع وسدس وسبع ومايكون بهذا الوصف كيف يجوز أن يكون قديما وقد وصفه (الله) بأنه محدث ووصفه بأنه منزل والمنزل لا يكون إلا محدثا وفيه دلالة على حدوثه من وجه آخر ...](٣). على أن القاضى قد ساق أكثر من عشرة أدلة على خلق القرآن منها العقلى ومنها السمعى والمقام لا يسمح بذكرها جميعا ولكنه قد استدل بالقرآن على أنه مخلوق حيث يقول (على أن كتاب الله عز وجل يدل على حدوث كلامه لأنه تعالى قال بعد أن بين أن الذكر هو القرآن بقوله إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقوله عز وجل وهذا ذكر مبارك أنزلناه . وقوله إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . أن الذكر محدث بقوله : مايأتيهم من ذكر من

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

(٢) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٥٣١ وما بعدها ، المغنى فى أبواب التوحيد جـ ٧ ص ٨٤ وما بعدها .

ربهم محدث. مايأتيهم من ذكر الرحمن محدث. وهذا نص فى حدوث كلامه[1].

والمحاسبى فى مناقشته للمعتزلة لم يعرض جميع أدلتهم التى ساقوها على خلق القرآن ولكنه يعرض دليلان فقط لهم وهذان الدليلان هما المتعلقان بقضية النسخ فقط ويرد عليهم رد الفاهم لها العاقل بكنهها.

الدليل الأول : وقوع النسخ فى القرآن حيث إن المعتزلة قد ذهبت كما يرى المحاسبى إلى أن ماوقع فيه النسخ فهو مخلوق {حيث يقول {وكان مما استدلوا به أنه كلام مخلوق أنه ينسخ بعضه ببعض. قالوا ولو لم يكن مخلوقا ماجاز عليه النسخ والتبديل}[2].

ويوضح القاضى عبدالجبار هذه المسألة بقوله {وكل ماورد فى كتاب الله عز وجل مما يدل على أن الله تعالى بغير القرآن أو بعضه أو يقدر عليه أو يبدله بغيره أو يقدر على مثله أو يأتى بمثله أو يجتزىء منه كقوله {لو كان البحر مدادا} الآية وقوله تعالى {ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده} الآية وقوله عز وجل {ماننسخ من آية} إلى ما شاكلها يدل على حدوثه لان كل هذه الصفات تستحيل على القديم. .}[3].

وبعد أن بين المحاسبى هذا الدليل فإنه يتوجه بعد ذلك إلى هدمه وإبطال الاستدلال به وأن المعتزلة قد جهلوا المعنى وأخطأوا فى التأويل حيث إن حقيقة النسخ هى رفع حكم واثبات حكم آخر وهذا لا يقتضى أبدا نسخ كلام بكلام آخر بل الجميع كلامه والمعتزلة يقولون بذلك فى معنى النسخ[4] ألا أنهم قد أخطأوا فى تطبيق هذه القاعدة يقول المحاسبى {وقد جهلوا المعنى وجاروا عن الحق لأن الله عز وجل لم ينسخ كلامه بكلام وإنما ينسخ مأمورا به بمأمور به آخر فأبدل أحدهما مكان الآخر وكلاهما كلامه وإنما ينسخ كلامه الأول بكلام منه ثان الكاذب الراجع عما قال فأما إذا كان جميعا منه فهما حق وصدق}[5].

وبين المحاسبى أن النسخ هو تغير الحكم الشرعى فى مسألة ما لمصلحة العباد وأن هذا التغير فى الحكم لا يقتضى أبدا تغير كلام الله حيث يقول {فإنما أمرهم بمأمور أوجبه ثم رفعه وبدله بمأمور آخر الزمهم القيام به وكلاهما كلامه أوجبهما

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبدالجبار بن أحمد الهمذانى جـ ٧ ص ٨٧ وما بعدها .
(٢) فهم القرآن ص ٣٦٤ .
(٣) المغنى جـ ٧ ص ٨٩ .
(٤) انظر تعريف النسخ في شرح الأصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٥٨٤ .
(٥) فهم القرآن ص ٣٦٤ .

فى وقتين مختلفين فالله عز وجل لم يأمر العباد أن يفعلوا كلامه ثم يأمرهم أن يفعلوا كلاما له ثانيا بدلا من الأول وانما أمرهم بعمل يعملونه ثم بدل لهم عملا آخر لزمهم إياه ونسخ الأول وجعل الثانى مبدولا به](١).

ويستدل المحاسبى على ذلك بقوله تعالى : لامبدل لكلماته وقوله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله فالمحاسبى يرى أن كلمات الله لا تتبدل ولا تتغير وانما الذى يتغير هو الحكم الشرعى الذى وردت به الآية وكأن المحاسبى يرى أن النسخ هو نسخ الحكم فقط أما القول بنسخ التلاوة فواضح من مذهبه لأنه لا يقول بذلك حيث يقول [ألم تسمع الله عز وجل يقول لا مبدل لكلماته وقال يريدون أن يبدلوا كلام الله لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم لن تخرجوا معى أبدا ولم يقل لهم إن الله حرم عليكم الخروج معى ولم يقل أبداً فيكونوا إذا أرادوا الخروج مع النبى صلى الله عليه وسلم أرادوا أن يعصوا الله ولا يكونوا مبدلين كلام الله ولكن الله عز وجل أمر نبيه أن يخبرهم أنهم لا يخرجون معه أبداً ولا جائز أن يخرجوا معه أبداً لأن هذا القول من الله عز وجل خبر منه أنه لا يدعهم يخرجون مع نبيه عليه السلام أبداً.. ولو أذن الله لكان هذا تبديلا لكلامه الأول وكان هذا كذبا وجل ربنا وتعالى عن ذلك](٢).

والمحاسبى بعد ذلك يوضح قاعدة هامة فى النسخ هي أن النسخ يكون فى حكم الآية لا فى نصها حيث يقول [والكلام الذى نهاهم به أولا كلام له واجب على العباد أن يؤمنوا به أنه حق وأنه من القرآن من كفر به فهو كافر ومن آمن به فهو مؤمن وأن عليهم أن لا يخرجوا جميعا من حفظه ... ولا يجوز أن يسقط من القرآن فلا يقراء ولا يتلى وإنما سقط فرض الآية وثبت نصها والنص حق وصدق وإنما بطل الفرض ولم يبطل النص](٣).

الدليل الثانى : وبعد أن بين المحاسبى تهافت الدليل الأول للمعتزلة ورد عليه رد الفاهم له يعرض لهم دليلا آخر ويرد عليه.

وهذا الدليل الثانى يقوم على تفسير المعتزلة لقوله تعالى [ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير : الآية فهم يذهبون إلى أنه ماجاز أن يكون بعض خير من بعض فهو مخلوق وماكان له مثل

---

(١) فهم القرآن ص ٣٦٤ .

(٢) فهم القرآن ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٦.

فهو مخلوق : يقول المحاسبى فى عرض هذا الدليل للمعتزلة [وكان مما احتجوا علينا به فى ذلك قول الله جل من قائل ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها. فقالوا ماجاز أن يكون بعضه خير من بعض فهو مخلوق لأنه إذا كان شيء خير من شيء فقد فضله والاخر منقوص وقال أو مثلها قالوا وماكان له مثل فهو مخلوق لأن المثل يشتبه بمثله وماجاز أن يأتى به الله جل وعز فيحدثه فهو مخلوق وكل مخلوق فمثله مخلوق لأن حكم المثل حكم مثله](١).

وبعد أن ذكر المحاسبى وجهة نظر المعتزلة لهذه الآية فإنه يتوجه لدفع هذا التأويل وبين أن معنى الخيرية فى الاية ليس كما فهموا أية خير منها ونكون الأولى أنقص منها فذلك جهل بمراد الله إنما الخيرية التى وردت فى الآية هى خيرية المأمور به فى الآية الثانية فإن المأمور به ثانيا أخف وأصلح للعباد من المأمور به أولا ويقيم المحاسبى على ذلك مايؤيد فهمه للآية على هذه الوجهة من القرآن الكريم حيث يقول [وجهلوا التأويل إنما قوله جل وعز نأت بخير منها. بخير بمأمور به هو أوسع لكم وأخف عليكم أو مثله فى الخفة والسعة وكذلك قوله عز وجل من جاء بالحسنة فله خير منها لا يعنى خيراً من التوحيد وانما يعنى له منها خير كما يقال الدراهم خير من المال. لا يريد أفضل من المال وإنما يريد الدراهم من المال خير](٢).

وبعد أن استدل المحاسبى من القرآن والعقل على فهمه للآية نراه يتوجه إليهم بعد ذلك لبطلان مذهبهم فى هذه القضية ويلزمهم الحجة التى لا يستطيعون أن يقولوا بعدها شيء حيث يقول [ومما يدل على بطلان قولهم أن قائلا لو قال ترك قيام الليل أن يكون علينا واجبا هو أرفق بنا وأوسع من قبل إتساعه لنا كان صادقا

---

(١) فهم القرآن ص ٣٦٨ = وقد بحثت فى بعض كتب المعتزلة والموجودة فلم أعثر على هذا التفسير الذي ذكره المحاسبى له والزمخشرى فى الكشاف والقاضى عبدالجبار فى تنزيه القرآن عن المطاعن يشرحان الآية ويقولان بالنسخ ولا يستدلان بالآية على خلق القرآن : إلا أنى أرى أن المحاسبى ربما إطلع على تفسير آخر للمعتزلة يشرح هذه الآية كما ذكرها ويؤيد ذلك ماذكره الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية ماتصه [إستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن القرآن مخلوق من وجوه أحدهما أن كلام الله لو كان قديما لكان الناسخ والمنسوخ قديمين لكن ذلك محال لأن الناسخ يجب أن يكون متأخراً عن المنسوخ والتأخر عن المنسوخ يستحيل أن يكون قديما وأما المنسوخ فلأنه يجب أن يزول ويرتفع وماثبت زواله إستحال قدمه بالاتفاق ...] الفخر الرازى مفاتيح الغيب حـ٣ ص ٢١١ وكل ماذكره القاضى عبدالجبار هو استدلاله بالاية خلق القرآن ضمن ماستدل به من الأدلة القرآنية على قضية خلق القرآن – أنظر المغنى حـ٧ ص ٨٩.

(٢) فهم القرآن ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

ولو قال إن قوله «فاقرؤا ماتيسر منه» خير من قوله يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا» فأراد أن الكلام الآخر من الله جل ذكره خير وأفضل والكلام الأول انقص وأدنى : كان كافرا بالله عز وجل إذا ازدرى كلام الله وزعم أنه منقوص دنى](١).

وبعد أن بين المحاسبى فساد قول المعتزلة وألزمهم الحجة التى لا مناص عنها والحق الذى لا ريب فيه نجد أن الإمام الرازى يذكر فى تفسيره ردا آخر على المعتزلة لقولهم بخلق القرآن واستدلالهم بهذه الآية على قضية الخلق حيث يقول بعد أن أورد شبههم مانصه [أجاب الأصحاب بأن كونه ناسخا ومنسوخا إنما هو من عوارض الالفاظ والعبارات واللغات ولا نزاع فى حدوثها. فلم قلتم إن المعنى الحقيقى الذى هو مدلول العبارات والاصطلاحات محدث : قالت المعتزلة ذلك المعنى الذى هو مدلول العبارات واللغات لاشك أن تعلقه الأول قد زال وحدث له تعلق أخر فالتعلق الأول محدث لأنه زال والقديم لايزال والتعلق الثانى حادث لأنه حصل بعدما لم يكن. والكلام الحقيقى لا ينفك عن هذه التعليقات ومالاينفك عن هذه التعلقات محدث وما لاينفك عن المحدث محدث والكلام الذى تعلقت به يلزم أن يكون محدثا : أجاب الأصحاب : أن قدرة الله كانت فى الأزل متعلقة بايجاد العالم فعند دخول العالم فى الوجود. هل بقى ذلك التعلق أو لم يبق ؟ فإن بقى يلزم أن يكون القادر قادرا على ايجاد الموجودات وهو محال. وان لم يبق فقد زال ذلك التعلق فيلزمكم حدوث قدرة الله على الوجه الذى ذكرتموه. وكذلك علم الله كان متعلقا بأن العالم سيوجد فعند دخول العالم فى الوجود إن بقى التعلق الأول كان جهلا وان لم يبق فيلزمكم كون التعلق الأول حادثا لأنه لو كان قديما لما زال ويكون التعلق الذى حصل بعد ذلك حادثا فإذن عالمية الله لا تنفك عن التعلقات الحادثة ومالا ينفك عن المحدثات محدث فعالمية الله محدثه. فكل ماتجعلونه جوابا عن العالمية والقادرية فهوجوابنا عن الكلام](٢).

وبهذا أبطل الامام الرازى أقوى دليل استدل به المعتزلة علي القول بخلق القرآن .

وبعد – فليست هذه هى كل المسائل التى بحثها المحاسبى فى كتابه فهم القرآن – فهناك مسائل كثيرة تناولها فى هذا الكتاب مثل الوعد والوعيد والجنة والنار والمعاد والشفاعة .. الخ ولكن المقام لا يسمح بذكر هذه المسائل كلها لذلك فسأكتفى بذلك على أننى سأعود لاكمال ذلك في بحث مقبل إن شاء الله تعالى .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٢) مفاتيح الغيب للرازى جـ ص ٢١١ .

واستطيع أن أقول بعد ذلك بأن المحاسبى فى بحثه لمسائل علم الكلام لم يخرج عن نطاق النص الإلهى سواء كان قرآنا أو سنة بل إنه إتخذ منهج السلف الصالح فى إثبات العقيدة الإسلامية ودفع شبه المعارضين يقول الدكتور أبوريدة {وأول من أسس مذهبا يستند إلى نصوص الوحى وإلى الحديث الشريف وحارب المعتزلة ٠ الحارث ابن أسد المحاسبى ٠٠٠}(١).

والمحاسبى بحق هو أول من أسس مذهبا كلاميا على عقائد صحابة رسول الله والسلف الصالح فهو لم يسرف فى التأويل ولم يقف جامدا أمام النص فيصل إلى التشبيه بل أنه كان يستأنس بالعقل ويستعين به فى فهم النص مع التفويض والتسليم فيما يستشكل على العقل فهمه وتلك هى العقيدة الإسلامية كما يجيب أن يعتقدها المسلمون اليوم٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د/ راشد محمد راشد سليمان

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بالمنوفية

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الاسلام لديجور نقله إلى العربية وعلق عليه د/محمد عبدالهادى أبوريدة ط ٤ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر هامش ص ٩٨٠